

الأحلام الناجحة

للأستاذ عبد العزيز جادو

(س) فتاة ناهزت الخامسة والعشرين ، وإنها لكالزهرة الناضرة في الروضة اليانعة ، ترفل في صحة ضافية ، وتردهى بجبال فنان . وكان من نعمة الله عليها أن خلق لها والديها يستمتعان بميسرة في العيش وبهجة في الحياة . وإذ كانت الآنسة (س) من خيريات الجامعة المتفوقات ، فقد أدت أن تركز إلى الدعوة وشاءت أن تشتغل معيدة في الجامعة ، فوجدت في عملها هذا لذة وأقبلت عليه في شوق .

وما هي إلا أيام حتى تغير كل شيء ، فانهارت صحتها ، وكثر تنفيسها عن عملها ، بغير وبغير عذر ، وعاد شبابها البهيج رجوماً وانقباضاً .

ولما بحثت حالة هذه الفتاة ، تبين أنها نتيجة حلم .

ولقد سرّ لها أن ترى الحلم أول مرة على ما فيه من إبهام وغموض ، ولكنه لما تكرّر ليلة بعد ليلة أفزعها وأرعها ، وحارلت جهدها أن تنفيه عن ذاكرتها أثناء ساعات نومها ، ولكن بدون جدوى .

وبدا الحلم أول مرة كأنما هي في صحراء موحشة ، وبينما هي تكافح في سبيل بلوغ الطرف الآخر من البادية ، حيث تعرف أن هناك شرايباً ووسائل للترفية ، إذا بها ترى أن الرحلة طويلة شاقة ، وإذا بالشمس اللاذعة تسلط على رأسها وقفاها وليس لها من دونها حجاب . وكانت (س) تلهث من فرط العطش والتعب ، وكل خطوة تخطوها في ذلك القفر تشمرها كأنها تقطع صخوراً بأقدامها . وأخيراً بلغت الواحة ، وهنا بدأ الجزء المفزع في الحلم ، فقد كانت المياه تترع الأنهار وتنصب في الشلالات ، ثم تكون بركا عميقة في كل جانب ، فاطفأت الفتاة عطشها بأن شربت جرعة ، غير أنه كان يبدو إلى جانبها شخص في هيئة الشيطان يهيب بها في صوت عال ضاحكاً : « اشربي ! اشربي ! » ولم يكن بالفتاة حاجة إلى الشرب بعد ما استوفت واكتفت ، ولكنها أرغمت على اللب والاكتراع حتى صار الماء يتدفق ثانية من

شفتيها ، ومع ذلك فهي مرغمّة أبدأ على الشرب . وأخيراً وجدت نفسها تسبح في مجرى مائي أسود اللون ، ومع إشرافها على الفرق فإنها لا تفرق

وهكذا تكرّر الحلم ليلة بعد ليلة ، حتى أمست الفتاة في حالة تدعو إلى الرثاء

ولما عرضت الآنسة (س) على أحد الأطباء النفسانيين ، وبحث حالتها بحثاً شاملاً ، وجد أن إلى جوار المنزل الذي تسكن فيه غدير ماء كان موضع بهجتها في طفولتها ، ولكنها الآن تحشاه ، ولو أنه أصبح جزءاً من حياتها يلازمها في رواحها ومضاهها وهذا ما تمثل لها في قول الشيطان : « اشربي ! اشربي ! »

فإذا خلتنا حالة هذه الفتاة الشابة جانباً ، وعالجنا الأحلام من جانبها العلمي ، وجدنا أن بعض الناس يفتخر بأنه لا يرى في نومه حلماً ؛ ومع ميلنا لتصديق هذا الزعم ، إلا أننا نعتقد أن مثل هذا الشخص به ضعف في الذاكرة ، فنحن لا يمكننا في كثير من الأحيان تذكر الأحلام بحملتها

ويعتقد كثير من الناس أن الأحلام إنذارات بما سيأتي به الأيام من حوادث . وكتب تفسير الأحلام التي تباع في الأسواق بكثرة تستوقف النظر ، والتي تفسر كل حلم على حدة ، إنما نتاج الحلم ودلالاته المستقبلية

وأقطاب علم النفس اليوم لا يتكرونها أن للأحلام معالم دالة على المستقبل ؛ ونحن لا ننكر أن للأحلام تنبؤات ، وإن كانت الأحلام في الغالب أشباحاً من الحاضر والماضي

ويخبرنا النفسانيون فوق ذلك أن الأحلام تندرج بين تجاربنا الطبيعية الضرورية لحياتنا ، وأنها تعبير عادي من تعبيرات العقل لا ضرر منه أكثر من الضرر الذي ينجم عن الطام أو التنفس أو النوم ذاته

وقد وضع الدكتور سيجموند فرويد منذ قرابة أربعين عاماً نظرية عن الأحلام سماها « نظرية الحراسة » . وقصارى هذه النظرية أن النوم ضرورة جوهرية للجسم الصحيح ، وأن العقل ذاته يفعل كل ما في مكنته ليتحقق من أن الجسم يأخذ حظه المقسوم من النوم المريح ؛ وفي أثناء النوم يلزم العقل الرواعي أن يكون في راحة تامة ، بيد أن العقل الباطن يظل مزاولاً وظيفته

ومن ثم يسخر ممن هم دونه في القوة . هذه الأحلام تنصح للنائم بالأبالي بما صرّ به من عقبات وصعاب ، أو بما سيحدث به الزمان من مكابدة ومشاق ، ولهذا يمنع قوة خارقة تجمله يستقيم إلى الراحة فلا يستيقظ ...

فالأحلام تمدّ موقفة وناجحة إذا هي أفليحت في حفظ النائم ناعماً فلا يفيق من غفوته قبل استيفائه قسطه من الراحة كاملاً .

ولنعد الآن إلى حكاية الأنسة (س) التي صدرنا بها هذا البحث فنقول إن الاخصان الذي حل الفتاة نفسياً ، أثبت أن للفتاة عمة انهرتها ذات مرة لأنها تشرب الماء بطريقة غير الؤفة أثناء تناولها الطعام حتى أنها أصيبت بمرض هضم ، الأمر الذي اضطرها إلى الاقلاع عن عادة تناول الماء خلال تناول الطعام . بل إنها زادت على ذلك فأمت لا تطفئ ظمأها إذا ما شربت في الأوقات العادية ، ومن ثم كانت (س) تذهب إلى فراشها وهي ظمأى ...

كان ذلك الظمأ حالة ثابتة في النوم . وكان يهدد بإيقاظ النائم وكان يادى الرأى إلى ممضاً يسبب التنشيط ، فحول حارس أحلامها الألم إلى صحراء مجدبة قاحلة ، مصحوباً بإبجاء ودى « ستجصلين فوراً على ماء كثير » . وإذا يقدو ظمأ الجسم الفيزيقي أكثر ثبوتاً ، يصير حارس الحلم أكثر تأثيراً لا يتمقل لحسب ولكن بصواب أيضاً فكان أن صاح الحلم « لا تستيقظى ، ها هو الماء كثيراً ويمكنك أن تأخذى منه كفايتك ا ... »

ووجد أن الأنسة (س) كانت تتخيل أن الحلم بوفرة الماء قد يكون سببه تمودها الفعلى على الشرب الكثير قبل النوم . فكانت لذلك لا تشرب إلا قليلاً قبل ذهابها إلى النوم ، آملة أن يقف الحلم عند حده . وكان مغبة عملها هذا أنها أطلقت المنان لعناد الحلم ...

وكان العلاج في غاية البساطة . هو أن تتناول قدحين من الماء قبلما تذهب إلى فراشها . وبهذا العلاج البسيط زالت أهمية الحلم وصار لا لزوم له على الإطلاق ، ولذا امتنع عن المودة . وبزوال الحلم زالت أيضاً المخاوف من الماء ، تلك المخاوف التي بدأت تؤثر على عقلها للدرجة خطيرة . واستمادت (س) سمحتها ، وسمادتها . والعلاج الذي تتخذه ضد ما نسميه الأحلام « السيئة » يوجد

خلال النوم من غير أن يوقظ النائم . والعقل الباطن يخترن في أعماقه حوادث وذكريات اليوم الماضى . كما يخترن في قرارته ذكريات الأحداث القديمة التي نسيها تماماً العقل الواعى . ذلك لأن العقل الباطن لا يعرف النسيان ، وهو في كل لحظة على أهبة أن يبدى للعقل الواعى ما قد نسيه . ولو أن الأحداث التي تمر بالعقل الباطن خلال النوم طافت بالعقل الواعى ، إذن لأرقت النائم ونفت عنه الراحة . لذا أخذت الطبيعة حيلتها ضد هذا الخطر وقدّمت لنا الأحلام . وميكانيكية المنع هي التي تشكل الأحلام في صورها المختلفة ، فطوراً تكون شائقة أخاذة ، وطوراً مفزعة صرعية على أن الأحلام كيفما تكن حالتها إنما هي حجاب وحفاظ على النوم ، وفي الصباح تبدو الأحلام مضحكة ووهمية كما تراى في أشباحها وخيالاتها ، واسكنها تمدّ ناجحة لأنها حفظت راحة الجسم وأدّت رظيفتها التلى .

والعلم الحديث يقسم الأحلام إلى ثلاث درجات :

الأولى : تختص بالأحلام التي تنجم عن اضطرابات في الغرفة التي ينام فيها النائم . فلو أن منبور المياه القريب من حجرة النائم اختل وبدأ يساقط قطعا لها صوت ؛ أو أن الوسادة التي تحت رأسه تكثت وغلظت ، فإنه في الحالة الأولى يطالع في حلمه مشهداً ريفياً بهيجاً ، ويسمع ترنيم الطير على الأشجار . ويحلم في الحالة الأخرى بأنه يتسلق جبلاً ويستمتع بمجال قته . فالحلم في الحالتين يؤدي وظيفته في حفظ الجسم مستريحاً ، وكأنه يقول في المرة الأولى للنائم « لا تستيقظ ا ليس الأمر أمر منبور المياه ، ولكنها الطيور تنفى ا » وفي حالة الوسادة الخشنة يقول الحلم للنائم : « إنما أنت تتسلق سخوراً لتصل إلى القمة بمد قليل فتسمر بمنظر جميل فلا تكثرت ا » وعندئذ يكون الحلم ناجحاً وموفقاً .

الثانية : تنشأ من حوادث اليوم الذي صرّ بالنائم . فلو أن امرأة جازت به في يومه أحداث غير سارة ، فقد يرى في نومه أن رجل البوليس يضرب أحد المارة مثلاً . ويقول لك حلمك الحارس : « إنها مشاجرة تافهة ، فامض في نومك مطمئناً ا »

الثالثة : وهي أهم مما تقدم جيماً — يستيقظ العقل الباطن في غضونها مستعيداً الأحداث الطوية في ضمير النائم . وتقوم ميكانيكية الحلم هنا بمساهمات ودية لاستمرار النوم ، إذ تلوح للعقل بأنه يقفز فوق قنن الجبال أو أسطح المنازل أو يبر المحيطات